التلاؤم مُنجزاً بلاغياً ووَصْفاً جمالياً

أ.م.د. أحمد محمد علي الرحيم م.م. عماد عجيب كريم
كلية الآداب/ جامعة الموصل المديرية العامة لتربية كركوك

Consistency as rhetorical achievement and an aesthetical description

Assistant prof. Dr. Emad Ajeeb Kareem
Directorate of Education in Kirkuk
Ass. prof. Dr. Ahmed Mohammed Ali AlRaheem
College of Arts\ Mosul University
Saa_Sha2010@yahoo.com

Abstract

In this study, the researcher detected the term "consistency" as a rhetorical achievement and an aesthetical description that is fulfilled in a certain level of the technical and linguistic expression. The researcher detected the roots of the term epistemology, as it - though it was not known until the age of writing maturity in the linguistic study and especially the rhetorical and critical aspect - was known and can be observed in the creative literary texts since the pre Islamic era, and the critique experts were acquainted with it and we can find it in the poems of AlNabigha AlThubyani or mentioned in the scholars' concepts and opinions like AlKhaleel Ibn Ahmed AlFaraheedi.

Keywords: adaptability, completed calligraphy, description, beauty.

الملخص:

في هذا البحث تتبعنا بالتأصيل مصطلح (التلاؤم). بوصفه منجزاً بلاغياً ووصفاً جمالياً يتحقق في مستوىً من التعبير اللغوي الفني، وقد أصَّلناه معرفياً على وفق كون هذا (المصطلح) وإن لم يعرف بهذا اللفظ إلا في عصر نضج التأليف في الدرس اللغوي وبالأخص البلاغي النقدي، إلا أنَّهَ كان موجوداً في النصوص الأدبية الابداعية منذ فجر العصر الجاهلي، وكان المحكمون النقديون على دراية بهِ، كما عرفنا ذلك عند النابغة الذبياني، أو في أراء العلماء كالخليل بن أحمد الفراهيدي.

الكلمات المفتاحية: التلاؤم، المنجز البلاغي، الوصف، الجمال.

التلاؤم مِنَ اللغةِ إلى الاصطلاح

التلاؤم لغةً:

التلاؤم مصدر الفعل تَلاَءمَ يَتَلاَءمَ، وهو من الخماسي المزيد بالتاء والألف، جذره الثلاثي: اللام والهمزة والميم؛ له أصلان: أحدهما الاتفاق والاجتماع والآخر خُلْقٌ رديء.

والمعنى الأول هو المعنى المقصود في هذا الموضع، وهو من قولهم: لأَمتُ الجُرحَ ولَأَمْتُ الصَدْعَ، إذا سَدَدتْهُ، وإذا اتفق الشيآن فقد التأما[1]، واللُأَمُ جمع لأَمَة وهي الدرع، وتجمع أيضاً على لُؤَم مثل نُفَر على غير قياس، كأنه جمع لُؤْمة، وشيء لأمٌ، أي ملتئم مجتمع، ولأمت بين القوم مُلاءَمة، أي: أصلحْتُ وجمعتُ، ومنه هذا طعام يُلائمني[2]، وفي قول عمر بن الخطاب رضِي الله عنه: ((أيُّها الناسُ لِيتزوجِ الرَّجلُ لِمَّتَه مِنَ النِّساءِ ولْتتزوجِ المرأة لِمَّتهَا منَ الرِّجالِ))[3]، أي: شَكْلُه ومَثْلُهُ.

واللَأْمُ: الاتفاق، وقد تلاءَم القوم والتأموا: اجتمعوا واتفقوا[4]، واللأمَةُ الدرع وجمعها لُؤَم، مثال فُعَل، وهذا على غير قياس، واللأمَة السلاح كله، يقال للسيف: لأمَة، لأنها تُلائِمُ الجسد وتلازمه، وقال بعضهم: اللأمة، الدرع الحصينة، وسُمِّيتْ: ((لَأْمة لِأحكامها وجَوْدةِ حِلَقِها. وتَلاءَمَ الشيئان، إذا اجتمعا واتصلا))[1].

(1) ينظر: مقاييس اللغة, أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ت(395هـ): 226/5.
(2) ينظر: تاج اللغة وصحاح العربية, أبو منصور إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت393هـ): 255/50.
(3) مسائل حرب, أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني (ت280هـ): 1/ 405.
(4) ينظر: لسان العرب, محمد بن مكرم بن علي جمال الدين بن منظور, (ت711هـ): 12/ 530.

فالمعنى اللغوي لـ(التلاؤم) هو إتقان الشيء وإحكامُ أجزائهِ لتظهرَ متفقةً مُنسجِمةً مُتلائمةً، ولا يَصِح وصفُ الشيء بأنه متلائم الاجزاء إلا إذا كانت أجزاؤه متفقة حتى يصيرَ كالشيء الواحد، قال تعالى: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾(2).

التلاؤم اصطلاحاً:

أما دلالته الاصطلاحية، فلا يكاد الناظِر في كتب البلاغة أن يَظفرَ بتعريفٍ جامع مانع لهذا المصطلح البلاغي، ولكن إذ تتبعنا جذور هذا الفن في تأريخ الأدب العربي، فإن البحث سيظهر لنا حقيقة مفادُها أنَّ هذا الفن موجود عند العرب منذ القدم قبل عصر التدوين بمفهومه ولم يكن له مصطلح أو اسم لأن البلاغة لم تكُن علماً مُنضبطاً له قواعده المستقرة آن ذاك، بل كان مجرد أحكام ذوقية نقدية يشار بها إلى جمال النص وبلاغة الكلام، فالعرب عرفوا كثيراً من الاحكام النقدية قبل عهد التدوين والتأليف التي أعانتهم على تفهم الشعر وتذوقه ونقده، وهناك الكثير من المواقف التي تؤكد أنهم أصحاب ذائقة نقدية بديعة يميزون بها جيد الكلام من رديئه، ويعرفون المتلائمَ منهُ والمتنافرَ سواءٌ في اللفظ أم في المعنى.

من ذلك تنازعُ امرئ القيس بن حُجْرِ الكندي وعلقمةَ بن عبدة، وهو علقمة الفحل في الشعر، أيهما أشعر؟ فقال واحد منهما: أنا أشعر منك، فَحَكَّمَا بينهما أمَّ جُندب زوجة امرئ القيس، فوصفَ كُلٌّ منهما فرَسهُ، فأنشداها القصيدتين، فقالت لامرئ القيس: علقمةُ أشعر منكَ، قال: وكيف؟ قالت: لأنكَ قُلتَ(3):

فلِلســـــوطِ أُلهـــــوبٌ وللسَّـــــاقِ درةٌ ... وللزَّجْـــرِ منـــهُ وقـــعٌ وأهـــوجُ مُتعِـــبِ

فجهدْتَ فرسَكَ بسوطك في زجرك ومريْتَهُ فأتعبتَهُ بساقك.

وقال علقمة(4):

فـــــأدركهُنَّ ثانيـــــا فـــــي عِنانـــــهِ ... يمـــــرُّ كمـــــرِّ الـــــرّائح المتحلـــــبِ

فأدرك فرسه ثانياً من عنانه لم يضربه ولم يُتعبه(5). فقد كان حكمها على أساس التلاؤم بين المقال والمقام، فالمقام مقام تفاضل ومدح للخيل، وأن بين كل واحد منها ما يفعله مع فرسه حتى يجود بالحركة، فأخفق امرؤ القيس في هذا المقام، وأجاد علقمة في هذا الوصف، إنَّ حكمها قام أساساً على التلاؤم الذي هو معيار البلاغة في الكلام عند العرب.

ومن ذلك أيضاً قصة سماع طرفة بن العبد – وهو صبي يلعب مع الصبيان – قول المُسيِّبِ بن علس الضبعي عندما قال(6):

وقـــد أتناســـى الهـــمَّ عنـــدَ احتضـــارهِ ... بنـــاجٍ عليـــه الصـــيعرية مُكـــدِمِ(7)

فقال طرفةُ: استنوق الجملُ، لأن (الصَّيعريةَ) سمة في عنق الناقة لا البعير(8).

فالذوق السليم جعله يتنبهّ الى أن لفظة (الصَّيعرية) غير ملائمةٍ للمعنى الذي قصده الشاعر، فإذا كان هذا النقد عند صبيانهم فما بالك بفحولهم الذين كانوا يتخيرون من الألفاظ أفصحها ومن المعاني أبلغها فيوافقون بينهما فينتج عن ذلك صورة بيانية خاليةٌ من التنافر في اللفظ والمعنى.

---

(1) تهذيب اللغة, محمد بن أحمد بن الازهري ابو منصور, ت(370هـ): 287/15،286. و ينظر: لسان العرب: 12/ 532.
(2) سورة الملك, الآية: 3.
(3) ديوان امرئ القيس, تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي: 13.
(4) البيت لعلقمة بن عبدة الملقب بـ(علقمة الفحل) والبيت ورد في الشعر والشعراء, عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت(276هـ): 1/ 212.
(5) ينظر: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء, أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني ت(384هـ): 24-25.
(6) الشعر والشعراء: 1/ 180, الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء, أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المزرياني ت(384هـ): 93.
(7) الناجي: كناية عن الجمل, الصيعرية: سمة في عنق الناقة, مُكدِم: غليظٌ أو صُلبٌ.
(8) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: 93.

ومما يدلنا على عنايتهم بالتلاؤم، أن القدامى عنوا بالقوافي فنبَّهوا على ظاهرة (الإقواء)[1]، في الشعر وهي من عيوبه، فقد عابوا على النابغة الذُّبيانيِّ، قالوا: إنَّه لم يُقوِ أحدٌ **من شعراء الطبقة الأولى ولا من اشباههم الا النابغةُ**[2]، **في قوله**[3]:

أِمـــــن آل ميَّـــــةَ رائـــــحٌ أو مغتـــــدي عجـــــــلانَ ذا زادٍ وغيْـــــرَ مـــــــزودِ

زعـــــم البـــــوراحُ أنَّ رحلتَنـــــا غـــــداً وبـــــذلك خبرّنـــــا الغـــــرابُ الأســـــودُ

فقد اختلف حرفي الروي عن بعضهما، فالأول جاء مكسوراً والثاني مضموماً والحركتان ثقيلتان، والثانية أثقل من الأولى على اللسان، فالانتقال من الثقيل الى الأثقل فيه تنافر، فضلاً عن عدم انسجام الايقاع في الأُذْنِ، والثِّقل على اللسان في أدائه الصوتي مما أدى الى نشوز نغم القصيدة، وكذلك في قوله[4]:

سَـــقَط النصـــيفُ ولـــم تُـــردْ إســـقاطهُ فتناولتْـــــــه واتَّقتْنـــــــا باليـــــــدِ

بمخضَّـــــبٍ رخـــــصٍ كـــــأنَّ بنانَـــــهُ عُـــــنمٌ يكـــــادُ مـــــن اللطافَـــــةِ يُعقـــــدُ

فقدِمَ المدينةَ، فعِيب عليهِ ولم يأبه، وجعلوا يخبرونه وهو لا يفهم ما يريدون، فقالوا لجارية: إذا صرت الى القافية فردِّديها فلما قالت: (الغراب الاسود) و (يعقد) و(باليد) و(مزود) علم فانتبهَ ولم يعد اليه، وقال: قدمت الحجاز وفي شعري ضَعةٌ، ورحلتُ وأنا أشعر الناس[5]، فَتَنَبُهِ النابغةِ إلى التنافر الحاصل من الاقواء في القافية الذي أدى الى اختلاف نغم الكلام – كما ذكرنا – ونفور أسماعهم منه، هذا دليل على أن ذوقهم السليم يمجُّ كل متنافر من الكلام ولا يستسيغه.

أمَّا في عهد التدوين فإن إشارة الخليل بن أحمد الفراهيدي ت(175هـ) إلى شروط فصاحة اللفظة العربية في مقدمة معجمه (العين) أهم دليل على أصالة التلاؤم في الكلام العربي، فقد تكلم على حروف الذلق الشفوية وهي ستة حروف كما عدَّها، منها ثلاثة ذلقية وهي ((ر ل ن)) ومخرجها من طرف غار الفم، وثلاثة شفوية وهي ((ف ب م)) ومخرجها من الشفتين[6]، فلما سهلت هذه الحروف الستة على اللسان، وخفَّ النطق بها كثرت في أبنيةِ الكلام فلا يخلو اسم او فعل مبني من الخماسي منها أو من بعضها[7]، ثم يقول في هذا: ((فإن وردت عليك كلمة رباعية أو خماسية معراة من حروف الذلق أو الشفوية لا يكون في تلك الكلمة هذه الحروف حرف واحد أو اثنان أو فوق ذلك فاعلمْ أنَّ تلك الكلمة محدثة مبتدعة ليست من كلام العرب لأنك لست واجداً من يسمع من كلام العرب كلمة واحدة رباعية أو خماسية إلا وفيها من حروف الذلق والشفوية واحدٌ أو أكثر))[8].

إن إشارة الخليل الى التلاؤم بين أصوات اللفظة يضع اللبِنَةَ الأولى من لبنات فصاحة اللفظة، وهي تباعد مخارج حروفها، وهو شرط أساس في التلاؤم.

ويأتي الجاحظ ت(255هـ) ليوسع قاعدة التلاؤم في كتابه البيان والتبيين، حين تكلم عن تنافر الحروف وتنافر الألفاظ، فيقول في تنافر الحروف: ((فأمَّا في اقتران الحروف فإن الجيمَ لا تُقارن الظاء ولا القاف ولا الطاءَ ولا الغينَ، بتقديم ولا تأخير، والزاي لا تقارن الظاءَ ولا السينَ ولا الضادَ ولا الذال، بتقديم ولا تأخير، وهذا باب كبير، وقد يكتفى بذكر القليل حتى يستدل به على الغاية التي اليها يجري))[9].

(1) الإقواء: هو اختلاف الإعراب في القوافي, وذلك أنْ تكون قافية مرفوعة وأخرى مخفوضة, الشِّعر والشعراء: 1/ 96, ينظر: نقد الشعر, قدامة بن جعفر بن قدامة بن زياد البغدادي (ت337هـ): 70.
(2) طبقات فحول الشعراء, محمد بن سلام الجحمي (ت232هـ): 1/ 67, ينظر: الشعراء والشعراء: 1/ 156.
(3) ديوان النابغة الذبياني, تحقيق: كرم البستـــاني: 38.
(4) ديوان النابغة: 40.
(5) ينظر: طبقات فحول الشعراء: 1/ 68, ينظر: الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: 38.
(6) ينظر: العين, الخليل بن أحمد الفراهيدي: 1/ 51.
(7) ينظر العين: 1/ 52.
(8) العين: 1/ 52.
(9) البيان والتبيين, عمرو بنُ بحرِ بن محبوبٍ أبو عثمان الجاحظ ت(255هـ): 1/ 52.

وهذا الكلام صريح عن التلاؤم الصوتي بين الحروف في مخارجها، وهو ما تكلم عنه الخليل قبله، ولكن الجاحظ لم يقصر التلاؤم الصوتي في حروف اللفظة الواحدة بل وسَّع أفقه ليشمل التلاؤم بين الالفاظ في الكلام، فيقول في تنافر الألفاظ: ((ومِنْ ألفاظِ العربِ تتنافرُ، وإنْ كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض الاستكراه فمن ذلك قول الشاعر:

وقبـــــرُ حـــــربٍ بمكـــــانٍ قَفْـــــرٍ ولـــــيسَ قُـــــربَ قبْـــــرِ حـــــربٍ قبـــــرُ

ولما رأى من لا علم له أن أحداً لا يستطيعُ أن يُنشدَ هذا البيت ثلاث مرات في نسق واحد فلا يتتعْتعُ ولا يتلجْلجُ، وقيل لهم إنَّ ذلك إنما اعتراه إذ كان من أشعار الجن، صدّقوا ذلك))[1].

وضرب في ذلك أمثلة، ((ومن ذلك قول ابن بشير في أحمد بن يوسف حين استبطأه:

لـــــمْ يضُـــــرَّها والحمـــــدُ لله شـــــيءٌ وانثنـــــت نحـــــو عـــــزف نفـــــسٍ ذهـــــولِ

فتفقد النصف الأخير من هذا فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض)) [2].

فينبغي على الألفاظ أن تكون متلائمة منسجمة متماثلة لكي لا يقع بينهما التنافر فتصبح كأولاد عَلةٍ، يقول الجاحظ: ((أنشدني ابو العاصي قال: أنشدني خلف الأحمر في هذا المعنى:

وبعـــــض قـــــريضُ القـــــوم أولادُ عَلَـــــةٍ تُلِـــــدُّ لســـــانَ النـــــاطق المـــــتحفظ[3]

وقال ابو العاصي: وأنشدني في مثل ذلك أبو البيداء الرياحيُّ:

وشِـــــعْرٌ كبَعْـــــرِ الكـــــبش فَـــــرّق بينـــــه لســـــانُ دعـــــيٍّ فـــــي القَـــــريض دخيـــــلُ

أما قول خلف: ((وبعض قريضِ القوم أولادُ علة)) فإنه يقول إذا كان الشعر مستكرهاً وكانت ألفاظ البيت من الشعر لا يقع بعضها مماثلاً لبعض كان بينها من التنافر ما بين أولاد العَلاّت، وإذا كانت الكلمة ليس موقعها إلى جنب أختها موافقاً كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعر مؤونة))[4]، وأما قوله: ((كبعْرِ الكبْش)) فإنما ذهب إلى أنَّ بعر الكبش يقع متفرقاً غير مؤتلف ولا متجاور، وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر تراها متفقة ملسا ولينة المعاطف سهلة، وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة ومستكرهة تشق على اللسان وتكده، والأخرى تراها سهلة لينة ورطبة متوازية سلسلة خفيفة اللسان، حتى كأن البيت بأسره كلمة واحدة، وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد))[5].

ويقول: ((وأجودُ الشعر ما رأيته متلاحم الاجزاء سهل المخارج فيعلم بذلك أنه قد أفرغ افراغاً واحداً، وسُبِك سبكاً واحداً فهو يجري على اللسان كما يجري على الدِّهان)) [6].

وإذا أردنا التَّعمُّق في معرفة التلاؤم، فلا بد لنا من الوقوف على ما ذكره ثعلب (291هـ) عن اتساق النظم في كتابة (قواعد الشعر) قال: ((اتساقُ النظم: ما طابَ قريضهُ وسَلِم من:

السِنادِ، والإقواء، والإجازة، والإيطاء، وغير ذلك من عيوب الشعر، وما قد سهَّلَ العلماءُ إجازته من قصر الممدود، ومدِّ المقصور، وضروب أخرى كثيرة، وإن كان ذلك قد فعله القدماء، وجاء عن فحول الشعراء))[7]، وقد بين كل واحد من هذه المصطلحات وأعطى مثالاً لكل واحد منها.

((فالسناد[1]: دخول الفتحة على الضمة والكسرة نحو قولِ ورقاءَ بن زهير العبسيِّ:

(1) البيان والتبيين: 1/ 49.
(2) المصدر نفسه: 1/ 50.
(3) أولاد علة: هم الأخوة من أب واحد, وأمهاتهم شتى.
(4) البيان والتبيين: 1/ 50.
(5) المصدر نفسه: 1/50-51.
(6) المصدر نفسه: 1/ 50.
(7) قواعد الشعر, أحمد بن يحيى بن زيد ابو العباس المعروف بـ(ثعلب):63.

رأيـــتُ زهيـــراً تحـــتَ كَلْكَـــل خالـــدٍ فأقبلـــتُ أســـعى كـــالعَجول أبـــادِرُ

فشُـــلتْ يمينـــي يـــومَ أضـــربُ خالـــداً ويمنعُـــهُ مِنِّـــي الحديـــدُ المظـــاهَرُ

فكسر وفتح)) [2]، فكسر الدال في (أُبادِرِ) وفتح الهاء في (المظاهَر) مما يثقل على اللسان، فالانتقال من الأثقل إلى الأخف جعل فجوة في الكلام يثقل بها الوزن ويختلف النغم.

أما الإقواء[3] فمثل له الشاعر بقوله:

خليلَـــيَّ إنـــي قـــدْ ســـألتُ فأُبَشَّـــرا بمكـــةَ أيـــام التحـــرُّجِ والنحـــرِ

إذا قبَّـــلُ الانســـان آخـــرَ يشـــتهي ثنايـــاهُ لـــمْ يـــأثمْ وكـــانَ لـــه أجـــرُ

فـــإن زادَ الله فـــي حســـناته مثاقيـــلَ يمحـــو اللهُ عنـــهُ بهـــا الـــوزرا

فكسر ورفع وفتح، وهنا أيضاً فإن الانتقال بين الحركات الثلاث في قافية القصيدة يذهب بتلاؤم القافية، ويجعل نغماً مختلفاً فيما بينها ومِنْ ثَمَّ يؤدي الى تنافر القصيدة.

أما الإكفاء[4]: ((دخول الذال على الظاء، والنون على الميم وهي الاحرف المتشابهة على اللسان،نحو قولِ أبي محمد الفقعسي:

يـــادارَ هِنـــدٍ وابنتـــيْ مُعـــاذِ كأنَّهـــا والعهـــدَ مـــذْ أيقـــاظِ

فجمع الذال والظاء، وكقول الشاعر:

بُنـــيَّ إنَّ البـــرَّ شـــيءٌ هـــينُ المنطـــقُ الطيِّـــبُ والطعـــيمُ

فجمع النون والميم)) [5]، فالذال والظاء من المخرج نفسهِ، فعند النطق بها لا بد من بذل جهدٍ زائد للتفريق في النطق بهما، وإلا فهما كصوت واحد في أذن السامع، وكذلك الامر مع النون والميم فمخرجهما واحد، وهو الشفتان مع خروج الهواء من الخيشوم وهو ما يُسمى الغُنَّة.

أما الإجازة فهي: ((اجتماع الأخوات، كالعين والغين، والسين والشين، والتاء والثاء، كقول الشاعر:

ألـــذُّ مِـــنْ ظَهْـــر فَـــرَسْ نـــومٌ علـــى بطْـــنِ فـــرشْ

(1) السِناد: هو اختلاف أرادف القوافي, كقولك: " علينا " في قافية, و " فينا " في أخرى, الشعر والشعراء: 97/1, وينظر: نقد الشعر: 70.
(2) قواعد الشعر: 64.
(3) الإقواء: هو اختلاف الاعراب في القوافي, وذلك أن تكون قافيةٌ مرفوعةً وأخرى مخفوضة, الشعر والشعراء: 1/ 96, وينظر: نقد الشعر: 70.
(4) الإكفاء: وهو اختلاف حروف الروي, فيكون دالاً وذالاً سيناً وشيناً ونحو ذلك من الحروف المتشابهة, ينظر: مفاتيح العلوم، محمد بن أحمد بن يوسف، أبو عبد الله، الكاتب البلخي الخوارزمي (المتوفى: 387هـ): 117, خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب, عبد القادر بن عمر البغدادي 1093هـ: 11/ 321.
(5) قواعد الشعر: 64-65.

وكقول اليهودي[1]:

رُبَّ شــــــتمٍ سَـــــــمِعْتُهُ فتصامَمْـــــــــتُ وعنّـــــي تركْتُـــــهُ فكُفِيـــــتُ

ينفـــــعُ الطيــــبَ القليـــــلُ مـــــن الـــــرزقِ و لا ينفـــــعُ الكثيـــــرُ الخبيـــــثُ

فاجعـــلِ الـــرِّزْقَ فـــي الحـــلالِ مـــن الكســـبِ ويَـــزاً سَـــريرتي مـــا حَييـــتُ

فجمعوا بين السين والشين، والتاء والثاء[2].

أما الإيطاء[3] فهو: ((تكرير القافية بمعنى واحد كقول حاتم:

أمـــــاويَّ إنْ يُصـــــبحْ صـــــدايَ بقفـــــرةٍ مـــــن الأرضِ لا مـــــاءٌ لـــــديَّ ولا خمْـــــرُ

وقال فيها:

يــفــكُ بـه العـانــي ويُـؤكـــلُ طيَّــباً ومـــا أنْ تعريـــهِ القِـــداحُ ولا الخَمْـــرُ

فكرر الخمر بمعنى واحد)) [4].

ومن هذا كله يبدو لنا جلياً أنَّ ثعلبا أرادَ أن يعدد بعض عيوب الشعر من جهة الصوت وكذلك من جهة المعنى، فاجتماع المتشابهات من الحروف يولد التنافر في الاصوات، وتنافر الاصوات هو عكس التلاؤم، وتكرار اللفظة في اكثر من بيت وبنفس المعنى يُضعف المعنى.

وخلاصة القول أن ثعلباً قصد أن الكلام الذي يخلو من العيوب هو كلام متلائم منسجم متماسك.

أما قدامة بن جعفر ت(337هـ) فإننا نجد في كتابه (نقد الشعر) كلاماً في صميم التلاؤم، وذلك في حديثه عن نعت اللفظ، فقال فيه: ((أن يكون سمحاً، سهل مخارج الحروف من مواضعها، عليه رونق الفصاحة مع الخلو من البشاعة)) [5]. فسهولة مخارج الحروف في اللفظ والجملة من غايات التلاؤم الأساسية، والتلاؤم هو شرط أساس في الفصاحة.

ولكننا نرى أن قدامة يستعمل مصطلح الائتلاف بدل التلاؤم فذكر: ائتلاف اللفظ مع المعنى وائتلاف اللفظ مع الوزن، وائتلاف المعنى والوزن، وائتلاف القافية مع ما يدل عليه البيت، وقد جعل من أنواع ائتلاف اللفظ مع المعنى المساواة، والإشارة، والإرداف، والتمثيل، والمطابقة، والجناس[6].

وقد بيّن كل واحد من هذه الأنواع وَمثَّل له بأبيات من الشعر لكنَّنَا لسنا بصدد تفصيلها، لأن الغرض من ذكرها هو بيان التلاؤم عند قدامة.

أما في ائتلاف اللفظ والوزن فقد ذكر أنَّه ينبغي: ((أنْ تكون الأسماء والأفعال في الشعر تامة مستقيمة كما بنيت، لم يضطر الأمر في الوزن إلى نقضها عن البنية بالزيادة عليها والنقصان منها، وان تكون أوضاع الأسماء والأفعال والمؤلفة منها وهي الأقوال،

(1) اليهودي يقصد به الشاعر السموأل, ديوان السموأل" 22-24.
(2) قواعد الشعر: 65.
(3) الايطاء: هو أنْ تتفق القافيتان في قصيدة واحدة, فإن أكثر من قافيتين فهو أسمج له, طبقات فحول الشعراء, محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي بالولاء (ت232هـ): 1/ 72, ينظر: الشعر والشعراء: 10/ 97, ينظر: مفاتيح العلوم: 117.
(4) قواعد الشعر, 65-66.
(5) نقد الشعر, قدامة بن جعفر (ت337هـ): 8.
(6) ينظر: المصدر نفسه، 55-61.

على ترتيب ونظام لم يضطر الوزن الى تأخير ما يجب تقديمه، ولا إلى تقديم ما يجب تأخيره منها، والاضطرار أيضاً الى إضافة لفظة أخرى يلتبس المعنى بها))[1]، بعبارة أسهل، أراد قدامة بهذا الكلام تلاؤم نسيج اللفظ مع حدود الكلام (الوزن) فلا يكون الوزن قاصراً على احتواء الألفاظ على المستوى الصرفي أو المستوى النحوي، بل يكون مساوياً وموازياً له، ومتلائماً معه، ومن هذا الباب قوله: ((ألَّا يكون الوزن قد اضطر الى إدخال معنى ليس الغرض من الشعر محتاجاً إليه، حتى إنَّه إذا حذف لم تنقص الدلالة لحذفه، أو إسقاط معنى لا يتم الغرض المقصود إلا به، حتى أن فقده يؤثر في الشعر تأثيراً بان موضعه))[2].

وأما ائتلاف المعنى والوزن، فأراد به أن يكون الوزن مستوعباً للمعنى فتكون المعاني مستوفاة لا يُضطرُ إلى نقصها عن الغرض والزيادة عليه، وفي ائتلاف القافية مع ما يدل عليه سائر البيت، فقد قال: ((أنْ تكون القافية مُعلَّقة بما تقدم من معنى البيت تعلق نظم له، وملائمة لما مر فيه))[3]، وقد ذكر نوعين هما:

- **الإيغال**
- **التوشيح**

إذن بعدما وجدناه من التلاؤم عند قدامة يمكننا الوقوف على حقيقة صريحة، هي أن قدامة فصَّل في هذا تفصيلاً تناول فيه كثيراً من جوانب هذا الفن من لفظ ومعنى ووزن، لكنه استعمل مصطلح الائتلاف، والذي معناه اللغوي مطابق لمعنى التلاؤم مع اختلاف يسير. وفي كلام الخليل في البلاغة الذي أورده ابن المدبر ت (379هـ) إشارة إلى التلاؤم، إذ قال: ((كُلُّ ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة، فما استطعت أن يكون للفظك طبقاً ولتلك الحال وفقاً، وآخر كلامك لأوله مشابها وموارده لمصادره موازنة فافعل، وأحرص ان تكون لكلامك متهماً، وإن ظَرُفَ، ولنظامك مستريباً وإن لَطُفَ، بمواتاة آلتك، وتصرف إراداتك معها، فافعل إن شاء الله))[4].

ويأتي الرماني (ت386هـ) ليسلط الأضواء على هذا الفن، فقد جعل التلاؤم قِسماً من أقسام البلاغة العشرة كما قسمها[5]، وقد عرفه بأنه: ((نقيض التنافر، وهو تعديل الحروف في التأليف)) [6]، وقد قسم الكلام على ثلاثة أقسام: متنافر؛ و متلائم في الطبقة الوسطى؛ ومتلائم في الطبقة العليا. وأعطى لكل قسم منها مثالاً: فالتأليف المتنافر: مثل قول الشاعر:

وقبـــــرُ حـــــربٍ بمكـــــانٍ قَفْـــــرٍ ولـــيسَ قُـــربَ قبـــرِ حـــربٍ قبـــرُ

وذكروا أن هذا من أشعار الجن؛ لأنه لا يتهيأ لأحد أن ينشده ثلاث مرات ولا يتتعتع، وإنَّما السبب في ذلك ما ذكرنا من تنافر الحروف، أما التأليف المتلائم في الطبقة الوسطى – وهو من أحسنها – كقول الشاعر[7]:

رمتنـــــي وســـــترُ اللهِ بينـــــي وبينَهـــــا عشـــــيةَ آرامِ الكنـــــاس رمـــــيم

رمـــــيمُ التـــــي قالـــــتْ لجيـــــرانِ بيتِهـــــا ضَـــــمِنْتُ لكـــــم ألَّا يـــــزالَ يهـــــيمُ

ألا رُبَّ يـــــومٍ لـــــوْ رمتْنـــــي رميْتُهـــــا ولكـــــنَّ عهـــــدي بالنضـــــالِ قـــــديمُ

أما المتلائم في الطبقة العليا فالقرآن كُلُّه، وذلك بيِّنٌ لمن تأمله، والفرق بينه وبين غيره من الكلام في تلاؤم الحروف على نحو الفرق بين المتنافر والمتلائم من الطبقة الوسطى))[1].

(1) نقد الشعر: 61-62.
(2) المصدر نفسه: 62.
(3) نقد الشعر: 62-63.
(4) الرسالة العذراء: إبراهيم ابن المدبر (ت379هـ): 48.
(5) ينظر: النكت في إعجاز القرآن, أبو الحسن علي عيسى الرماني: 76.
(6) النكت في إعجاز القرآن: 94.
(7) الأبيات لأبي حية النميري, ذكرت في البيان والتبيين: 3/ 213.

إنَّ تعريف الرماني للتلاؤم وتقسيمه لنظْمِ الكلام يظهر لنا أن الرماني قصد التلاؤم في الجانب الصوتي من الكلام، وقد ذكر التنافر بين الحروف يكون في البعد الشديد والقرب الشديد بين مخارجها[2]، إلا أنَّهُ لم يُغفل تلاؤم الألفاظ مع المعاني ويدلنا على ذلك كلامه حين قال: ((فإذا انضاف إلى ذلك حسن البيان في صحة البرهان في أعلى الطبقات ظهر الإعجاز لجيد الطباع البصير بجواهر الكلام، كما يظهر له أعلى طبقات الشعر من أدناها، إذ تفاوت ما بينهما))[3].

فهذا دليل واضح على أن التلاؤم لا يقتصر على الأصوات والحروف أو الألفاظ مع بعضها، فحسب بل يتسع التلاؤم ليشمل مزواجة الالفاظ للمعاني ومطابقتها لها، فالمعنى الرقيق يحتاج الى لفظ رقيق والمعنى الجزل يحتاج الى لفظ جزل، وكذلك التهديد والوعيد والترغيب والترهيب.

أما التلاؤم عند عبد القاهر الجرجاني (ت471 أو 474هـ) فلم يقصره على الجانب الصوتي، بل تعدى الموضوع عنده إلى المستوى التركيبي (النظم) وذلك بأن تلائم اللفظة في معناها اللفظة التي بعدها، والالفاظ عند الجرجاني لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلمة مفردة، وإنما تثبت لها ((الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ))[4].

ويضرب على ذلك مثالاً قائلاً: ((ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر، كلفظة الأخدع))[5]،في بيت الحماسة[6]:

تلفـــتُ نحـــو الحـــي حتـــى وجـــدتُني وجِعـــتُ مـــن الإصـــغاء لِيتـــاً وأخـــدعا

وبيت البحتري[7]:

وإنـــي وإن بلّـغتـني شـــرفَ الـغـنـــى وأعتقْـــتَ مـــن رِقِّ المطـــامع أخـــدعي

فإن كها في هذين المكانين ما لا يخفي من الحسن، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام[8]:

يا دهـــــرُ قـوِّمْ مِنْ أخدعيـك فـقـد أضـــجـجْتَ هـــذا الأنـــامَ مِـــن خُرقِـــكْ

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والإيناس والبهجة))[9].

ثم يؤكد هذا المعنى في موضع آخر قائلاً: ((فإنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع، ونراها بعينها فيما لا يُحصى من المواضع وليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير، وإنَّما كان كذلك، لأن المزية التي من أجلها نَصِفَ اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح، مزية تحدث من بعد أنْ لا تكون، وتظهر في الكلم من بعد أن يدخلها النظم، وهذا شيء إن أنت طلبته فيها وقد جئت بها أفراداً لم تَرُمْ فيها نظْماً، ولم تُحدث لها تأليفاً، طلبت مُحَالاً، وإذا كان كذلك وجب أن تعلم قطعاً أن تلك المزية في المعنى دون اللفظ))[10].

إن نظرة الجرجاني الى التلاؤم من هذا الجانب قائم على نظرته للفصاحة، فهي عنده مرادفة للبلاغة والبراعة والبيان[11].

---

(1) النكت في إعجاز القرآن: 94- 95.
(2) ينظر: المصدر نفسه: 96.
(3) المصدر نفسه: 96.
(4) دلائل الاعجاز, ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت471هـ أو 474هـ): 1/ 46.
(5) دلائل الاعجاز: 1/ 46.
(6) البيت للصمة بن عبد الله القشيري, شرح ديوان الحماسة لأبي تمام: 2/ 61.
(7) ديوان البحتري, تحقيق: د.عمر فاروق الطباع, ط. دار الأرقم بن الأرقم: 2/ 29.
(8) ديوان ابي تمام, شرح التبريزي, تحقيق: محمد عبده عزّام, ط1و دار المعارف, مصر: 2/ 405.
(9) دلائل الاعجاز: 1/ 47.
(10) المصدر نفسه: 1/ 401.
(11) ينظر: المصدر نفسه: 1/ 43.

والفصاحة عنده لليست للفظ وتلاؤم الحروف فقط، وقد ردَّ على من يرى: إنَّ الفصاحة للفظ وتلاؤم الحروف إذْ قال: ((وهذه شبهة أخرى ضعيفة، عسى أن يتعلق بها متعلق ممن يقدم على القوم من غير رؤية، وهي أن يدعي أن لا معنى للفصاحة سوى التلاؤم اللفظي، وتعديل مخارج الحروف حتى لا يتلاقى في النطق حروف تثقل على اللسان كالذي أنشده الجاحظ[1]، من قول الشاعر:

وقبـــــر حـــــربٍ بمكـــــانٍ قَفْـــــرٍ ولـــيسَ قُـــربَ قبـــرِ حـــربٍ قبـــرُ)) [2]

ويقول: ((كيف تكون مفكراً في نظم الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافاً وأحوالاً إذا عرفتها عرفت أن حقها أن تنظم على وجه كذا))[3].

مما تقدم يمكن القول إنَّ الجرجاني قد وسّع اساس الفصاحة على اعتبار أنها ترادف البلاغة عنده، فجعل من شروط الفصاحة تلاؤم الألفاظ مع بعضها ومع المعنى الذي سيقت من أجله، فقال: ((لو كانت الكلمة إذا حَسُنَتْ حَسُنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلفت بها الحال، ولكانت إمَّا أنْ تحْسُنَ أبداً، ولا تحسُنَ ابداً))[4].

وأوجز مذهبه في هذه المسالة، فقال: ((وهل تجد احداً يقول: (هذه اللفظة فصيحة) إلا وهو يعتبر مكانها من النظم، وحسن ملاءمة معناها لمعاني جاراتها وفضل مؤانستها لاخواتها))[5].

إن المنشئ على وفق كلام الجرجاني لا بد له من أن يتأمل المعاني التي تموج في نفسه، فيختارها ما يلائمها من ألفاظ بعد أن ينظمها نظماً تظهر بمقتضاه مؤتلفة، سواء فيما بينها أم مع المعنى والمقام الذي تقال فيه.

وفي كلام السكاكي ت(626هـ) عن الفصاحة والبلاغة إشارة منه إلى التلاؤم في الكلام من جميع الجوانب، فقد جعل للفصاحة قسمينِ: الفصاحة اللفظية، والفصاحة المعنوية، واللفظية: ((هو أن تكون الكلمة عربية أصلية وعلامة ذلك أن تكون على ألسنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أَدْوَرَ واستعمالهم لها أكثر لا مما أحدثها المولدون ولا مما أحطأت فيه العامة وأن تكون أجرى على قوانين اللغة وأن تكون سليمة من التنافر))[6]. أما المعنوية: ((وهو خلوص الكلام من التعقيد، والمراد بتعقيد الكلام هو أن يعثر صاحبه فكرك في متصرفه ويشيكُ طريقك على المعنى ويوعر مذهبك نحوهُ حتى يقسم فكرك ويشعب ظنك على أن لا تدري من أين تتوصل وبأي طريق معناه يتحصل))[7]. كقول الفرزدق[8]:

ومـــا مِثلـــه فـــي النـــاس إلا مملكّـــا أبـــو أُمِّـــهِ حـــيٌ أبـــوه يقاربـــهُ

وكذلك جعل للبلاغة مرجعين: هما علم البيان، وعلم المعاني، وعنده أن الكلام ينظر اليه من أربع جهات: من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني، ومن جهة الفصاحة المعنوية، ومن جهة الفصاحة اللفظية، وقد أورد في ذلك نماذج من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[9] فقال: "والنظر في هذه الآية من أربع جهات، من جهة علم البيان، ومن جهة علم المعاني وهما مرجعا البلاغة ومن جهة الفصاحة المعنوية ومن جهة الفصاحة اللفظية، اما النظر من جهة علم البيان وهو النظر فيما فيها من المجاز والاستعارة والكناية وما يتصل بها فنقول: إنَّه عزَّ سلطانه لمّا أراد أن تبين معنى: أردنا ان نرُدَّ ما انفجر من الأرض على بطنها فارتدَّ، وأنْ نقطع طوفان

(1) ينظر: البيان والتبيين: 1/ 74.
(2) دلائل الإعجاز: 1/ 57.
(3) المصدر نفسه: 1/ 53.
(4) دلائل الإعجاز: 1/ 48.
(5) المصدر نفسه:1/ 44.
(6) مفتاح العلوم: 416.
(7) مفتاح العلوم: 416.
(8) البيت للفرزدق في لسان العرب: 10/ 492, وفي دلائل الإعجاز: 1/ 83, ولم أقع عليه في ديوانه.
(9) سورة هود: [44].

السماء فانقطع، وأنْ نغيض الماء النازل من السماء فغاض، وأن نقضي أمر نوح وهو إنجاز ما كنّا وعدنا من إغراق قومه فقضي، وأنْ نسوي السفينة على الجودي فاستوت، وأبقينا الظلمة غرقى، بنى الكلام على تشبيه المراد بالمأموم الذي لا يتأتى منه لكمال هيبته، العصيان وتشبيه تكوين المراد بالأمر الجزم النافذ في تكون المقصود تصويرا لاقتداره العظيم، وان السموات والأرض وهذه الأجرام العِظام تابعة لإرادته ايجاداً وإعداماً ولمشيئته فيها تغييرا وتبديلا كانهما عقلاء مميزون وقد عرفوه حق المعرفة وأحاطوا علما بوجوب الانقياد والاذعان لحكمه..."[1].

"واما النظر فيها من حيث علم المعاني وهو النظر في فائدة كل كلمة منها، وجهة كل تقديم وتأخير فيما بين جملها ذلك أنَّه اختير "يا" دون اخواتها لكونها أكثر في الاستعمال وانها دالة على بعد المنادي الذي يستدعيه مقام إظهار العظمة وابداء شأن العزة والجبروت"[2] إلى آخر ما ذكر في هذه الجهة.

و"أمَّا النظر من جانب الفصاحة المعنوية فهي كما ترى نَظْم للمعاني لطيف، وتأدية لها ملخصة مبنية لا تعقيد يُعثِّر الفكرة في طلب المراد ولا التواء يشيك الطريق على المرتاد، بل إذا جرَّبْتَ نفسك عند استماعها وجدتْ أذنُكَ ألفاظَها تسابقُ معانيها ومعانيها تسابقُ ألفاظَها، فما من لفظة في تركيب الآية ونظمها تسبق على أُذنكَ إلا ومعناها أسبقُ على قلبك، وأمَّا النظر فيها من جانب الفصاحة اللفظية فألفاظها على ما ترى عربية مستعملة، جارية على قوانين سليمة عن التنافر، بعيدة عن البشاعة عذبة على العذبات، سليسة على الإسلاسات، كل منها كالماء في السلاسة. وكالعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة"[3].

مما تقدم ذكره مِن كلام السكاكي في الفصاحة والبلاغة يظهر جلياً من خلال تقسيمه النظر في الكلام إلى أربع جهات مكان التلاؤم، فهو عينه، لأنَّ معنى كلامِهِ أنَّه لابُدَّ للكلام من الارتباط من كل الجوانب المعنوية واللفظية والتركيبية التصويرية (علم البيان).

ونرى في الكلام عن الفصاحة وكذلك البلاغة عند القزويني ت(739هـ) شيئا لا يخرج عن سور مملكة البلاغيين الذين سبقوه إلا أنَّه فصَّل في موضوع الفصاحة، فذكر فصاحة المفرد وهو ان يكون خالصاً من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس[4]، وفصل في ذلك وضرب امثلة لا تختلف عن امثلة من سبقوه، وذكر فصاحة الكلام فقال فيها "هي خلوصه من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد مع فصاحته"[5]، وأيضاً فصَّل فيه القول. وكذلك ذكر فصاحة المتكلم وقال: "هي مَلَكَة يُقْتَدر بها على التعبير عن المقصود وبلفظ فصيح"[6].

أمَّا في كلامه عن بلاغة الكلام فقد قال: " هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته"[7]، ومقتضى الحال المقام الذي يقال فيه الكلام، وهذا هو مدار التلاؤم بعد تعديل الحروف. وقال أيضاً: " فالبلاغة راجعة الى اللفظ باعتبار إفادته المعنى عند التركيب"[8]، وهو بهذا يوافق مراد عبد القاهر الجرجاني، إذ صرح بأن وصف اللفظ بالفصاحة إنَّما هو من حيث إنَّه دال على المعنى[9].

فالكلام عن الفصاحة والبلاغة دائما ما يخلص الى مفهوم التلاؤم الذي نحن في صدد تفصيله.

إذن البلاغة ليست في اللفظ وحده، وليست في المعنى وحده، وإنَّما هي في الارتباط القوي بينهما، وأثرٌ لازم لسلامتهما وانسجامهما.

ولعل كلام أبي الحسن الهروي (ت 1014هـ) عن التلاؤم إذْ قال: "إن التلاؤم يكون بتلاؤم الحروف وتلاؤم الحركات والسكنات وتلاؤم المعنى فإذا اجتمعت هذه الوجوه خرج الكلام غاية في العذوبة وفي حصول بعضها دون بعض انحطاط في درجة العذوبة"[10]،

(1) مفتاح العلوم: 417- 418.
(2) المصدر نفسه: 419.
(3) المصدر نفسه: 421.
(4) ينظر: الإيضاح في علومِ البلاغة، محمد بن عبد الرحمن جلال الدين القزويني (ت739هـ): 21/1.
(5) المصدر نفسه: 28/1.
(6) المصدر نفسه: 41/1.
(7) المصدر نفسه: 41/1.
(8) المصدر نفسه: 44/1.
(9) المصدر نفسه: 50.
(10) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح, علي بن سلطان بن محمد ابو الحسن نور الدين الملا الهروي القارئ (ت1014هـ): 3011/7.

فبهذا التعريف يتعدى التلاؤم الجانب الصوتي الى الجانب التركيبي والدلالي فقوله: " تلاؤم الحركات والسكنات"، يحتمل مراعاة الحركات والسكنات على مستوى تركيب الكلام، وهو ما يسمى المستوى النحوي، وكذلك يحتمل كلامه عن الحركات والسكنات ومراعاتها الصبغة الصرفية، وهو ما يسمى المستوى الصرفي. واما قوله: "تلاؤم المعنى" اي تلاؤم المعنى مع اللفظ.

ولكنَّ التلاؤم أوسعُ مما جاء في تعريف أبي الحسن الهروي، ولعل معنى التلاؤم الذي ذكره الاستاذ المرحوم مصطفى صادق الرافعي (ت 1356هـ)- وهو من المحدثين- يُظهِرُ المساحة الحقيقية للتلاؤم في الكلام والمعنى، فنغمات الحروف يجب ان تكون متلائمة بعضها مع بعض في الكلمة، والكلمات يتلاءم بعضها مع بعض في الجمل، والجمل يتلاءم بعضها مع بعض في القول كله[1].

فمن خلال هذا المعنى يمكن القول: إنَّ أُفق التلاؤم يكون أوسعَ حيث يشمل جمع أجزاء الكلام ابتداءً من الأصوات في الكلمة و انتهاءً بالتراكيب، مع ضرورة القول إنَّ هذا التلاؤم الحاصل بين أجزاء الكلام اللفظية لا يكون تلاؤما تاما ما لم يتلاءم مع المعنى الذي سيقت له الألفاظ.

ومن المحدثين من ذكر تفصيل المصطلح وعَرَّفه ولم يطلق عليه هذه التسمية، كما هو الحال عند السيد أحمد الهاشمي[2]، في كتابه جواهر البلاغة، فقد ذكر التلاؤم تحت عنوان " ائتلاف اللفظ مع المعنى" وعرّفه بقولِهِ:" أنْ تكون الألفاظُ موافقةً للمعاني، فتُختارُ الألفاظُ الجزلةُ، والعباراتُ الشديدة للفخر والحماسة، وتُختارُ الكلماتُ الرقيقة والعبارات اللينة للغزل والمدح".[3]

واستشهد له بعدة ابيات فيهما بيتان لبشار بن برد[4]:

إذا ما غَضِبْنا غَضْبَة مُضرية هتكنا حِجابَ الشَّمسِ أو تُمْطِرَ الدَّماً

إذا ما أعرنا سيداً من قبيلــة ذُرى مِنْبــَرٍ صلَّــى علَيْــهِ وسلَّمـــا

وكذلك قول الاخر[5]:

ولستُ بنظَّارٍ إلى جاني الغنى إذا كان العُلىَ فـي جـانــب الفـــقـرِ

وفي حديث ابن حبنكة الميداني (ت1425هـ) عن اللفظ والمعنى تفصيل لقضية التلاؤم، إذْ قال: "من البدهيات الاساسية، إن الكلام ذا الدلالة اللغوية إنما هو لفظ ومعنى."[6]

وتقسيمه للفظ الى مفرد والى مركب هو من صميم الموضوع، فقد قسم المفرد في المنظار الادبي وكذلك المركب إلى اربعة اقسام، ومِنْ من ثلاث جهات[7].

اما المفرد فأقسامه:

1- **اللينُ السهل.**
2- **القويُّ الجزل.**
3- **الحوشيُّ الغريب.**
4- **الصعبُ الجَمُوحُ.**

وقال: "الأديب رفيع الأدب مرهف الحس في ذوق الكلمات يختار في كلامه من القسمين الأولين اللين السهل، والقوي الجزيل."[8]

---

(1) ينظر اعجاز القران والبلاغة النبوية, مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي (ت 1356هـ): 147- 170.
(2) هو السيد أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي المشهور في زمانه بـ(معلم البيان) (ت1943م).
(3) جواهر البلاغة, السيد أحمد الهاشمي: 412.
(4) ديوان بشار بن برد, تقديم محمد الطاهر بن عاشور:4 /184- 185.
(5) ذكر في طبقات الشعراء, عبد الله بن محمد بن المعتز العباسي(296هـ): 293/1 لابي يعقوب الخُريمي.
(6) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها, عبد الرحمن بن حبنكة الميداني(ت1425هـ): 29/1.
(7) ينظر: المصدر نفسه: 30/1.
(8) ينظر: المصدر نفسه: 31/1.

"فاللين السهل له درجات تتفاوت في ذوق الأديب فمِنْ هلامي رجراج مثل الكلمات الخفيفة في النطق على اللسان ويستطيع الأطفال الصغار المبتدئين بالنطق أنْ ينطقوا بها صحيحة سليمة وهي غالبا تتألف من الحروف الشفوية والصوتية، ثم الحروف اللثوية والصوتية مثل" بابا– ماما وغيرها"، ثم تتدرج النسبة ارتقاءً، مع المحافظة على صفة اللين والسهولة، ولكن بالنسبة الى نطق الكبار العاديين مثل: "نسمة– بسمة– رنا – دنا– وَهى – وَشَى وغيرها" ومن السهل اللين في القران قول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ، الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ، وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[1]"[2].

اما القسم الثاني فهو "القوي الجزل وتتفاوت في ذوق الفصيح ذي الحس المرهف درجات هذا القسم، ومن الأمثلة عليه المفردات الآتية من سورة الشمس: ﴿وَضُحَاهَا – جَلَّاهَا – يَغْشَاهَا – طَحَاهَا – بطَغْوَاهَا – إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا – فَعَقَرُوهَا – فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ – عُقْبَاهَا﴾[3]"[4] وغيرها لقد آثرنا ذكر هذين القسمين لأنهما في صميم التلاؤم الصوتي في اللفظ وهو جزء من مدار بحثنا.

اما اللفظ المركب في المنظار الأدبي: فقد قسمه من ثلاث جهات[5]:

1- جهة السبك.

2- جهة الكثافة.

3- جهة تواصل الجمل بأدوات الربط أو تفاصلها.

والقسم الاول هو الذي يهمنا في هذا البحث وهو (جهة السبك) وقد قسَّمَ اللفظَ المُركَّبَ من جهة السبك إلى اربعة أقسام[6].

1- المتلائم المتناسق، المتوائم السهل حسن السبك.

2- المتنافر الصعب العسر النطق.

3- سيء السبك ضعيف الإنشاء.

4- معقد الترابط صعب الفهم.

ويقول: "الأديب البليغ رفيع الذوق، ذو الحس المرهف، المتمرس بصناعة القول الرفيع، يحاول أن يكون كلامه سليما من أن يكون سيء السبك ضعيف الإنشاء ومن أن يكون معقد الترابط صعب الفهم، ويتحرى أنْ يكون كلامه من القسم الأول المتلائم المتناسق المتوائم السهل حسن السبك"[7].

وفي نهاية المطاف مع الميداني – رحمه الله تعالى– يمكننا إيجاز رأيه في الكلام البليغ بعبارته التي سبق ذكرها، أنّ "الكلام لفظ ومعنى" وتفصيله في الجانبين دليل رأيه، وهو بهذا يوافق كثيرا ممن سبقه من القدامى، وكلامه عن اللفظ والمعنى هو التلاؤم بعينه.

اما الدكتور محمد العمري فقد ذهب إلى ما ذهب إليه الميداني – رحمه الله تعالى– فالكلام يكون بتلاؤم اللفظ والمعنى ولا يمكن أن يعول على أحد الجانبين دون الآخر في بلاغة الكلام، وهذا واضح من خلال كلامه عن ابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني، بأنهما لم يستطع أي واحد منهما ان ينتهي الى إقصاء الجانب الذي لم يدخله في حد الكلام. فابن سنان يجعل الفصاحة في اللفظ مفردا ثم مع المعنى و يعود بعد ذلك الى الحديث عن المعنى من خلال معايير بلاغة التركيب، والجرجاني يؤول المزية الصوتية إلى مزية دلالية لكي يمكنه الاعتراف لها ببعض القيمة ثم يسيرُ أكثر من ذلك الى موقف واقعي بالاعتراف لها بنوع من المزية البلاغية حتى يسمح لها بالانفراد بالإعجاز[8].

(1) سورة الرحمن: [1-6].
(2) البلاغة العربية: 29/1.
(3) سورة الشمس: [1-15].
(4) البلاغة العربية أسسها وعُلومُها وفنونها: 1/ 30
(5) البلاغة العربية أسسها وعُلومُها وفنونها: 31/1.
(6) المصدر نفسه: 32/1.
(7)المصدر نفسه: 32/1.
(8) ينظر: البلاغة العربية أصولها وامتداداتها, محمد العمري: 416.

وبعد ما ذكرناه في حق التلاؤم من اقوال القدامى والمحدثين يمكن ان نستخلص منها تعريفا للتلاؤم لعلَّه يوفي بالمفهوم البلاغي لهذا المصطلح.

فأقول: لعلَّ التعريف الأنسب للتلاؤم: هو انسجام أصوات الحروف في الكلمات، وانسجامها مع المعنى سواءً المفرد المعجمي أم المركب في الجمل والنصوص، وائتلاف الكلمة مع ما قبلها وما بعدها في الجملة، واتفاق الجمل مع بعضها في السياق الذي تتلاءم ألفاظه مع دلالته المساق من اجلها.

مصطلحات متضمنةٌ دلالة التلاؤم

ومما تجدر الاشارة اليه في هذا المقام إنَّ هذا المصطلح لم يخرج عن معنى التناسب والتشابه في وصفه للكلام المتناسبة أجزاؤه إلا أنَّ من البلاغيين من استعمل مصطلح التناسب بدلاً من التلاؤم ومنهم من سماه تشابهاً[1]، يشير إلى نقيض التباين والاختلاف. ومنهم من سمَّاه إئتلافاً[2]، ومنهم من استعمل مصطلح مراعاة النظير[3]، ليعطي مفهوم التلاؤم نفسه.

ولكنْ هذه المسميات والمصطلحات التي استعملوها للتعبير عن هذا الفن أراها تقصر عن استيعاب مفهومه الشامل، إذ إن البلاغة كما هو معلوم. علم متجدد ينبض بالحياة، فمن زمن الى آخر نجد تجديدا في طرائق معالجتها للنصوص، ولهذا نرى في كثير من كتب البلاغة إطلاق أكثر من مصطلح لموضوع واحد مع اختلاف يسير في وجهات النظر، ومصطلحنا " التلاؤم" ليس بمنأىً عن هذا الاختلاف فالبلاغيون ايضا لم يتفقوا على مصطلح واحد في وصف هذا الجانب الفني في النص، بل وجدناهم يوظفون مصطلحات أُخرى كالتناسب ومراعاة النظير وتشابه الأطراف والتوفيق والائتلاف والتشابه، وسأبين مفهوم كل مصطلح وعلاقته بالتلاؤم:

فالتناسب: مصدر الفعل تَنَاسَب، وتَنَاسَب الشيئآن إذا اتفقا في شيءٍ ما، وتماثَلا وتشاكلا، والمناسبة المشاكلةُ والمماثلة[4].

أما مراعاة النظير: فمركبٌ إضافيٌّ من: "مراعاة" مضافة إلى "النظير" والمقصود بـ"النظير: المثيل او المِثْلُ: وقيل النظير: المِثل في كل شيء. وفلان نظيرك أي مثلك لإنَّه إذا نظر إليها الناظر رآهما سواءً[5]. فمعناه أنْ يراعى المِثْل، أمَّا في الاصطلاح البلاغي فـ"مراعاة النظير": هو أن يُجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد[6] وهو: "الائتلاف والتلفيف والتناسب والتوفيق والمؤاخاة[7]، كقوله تعالى ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾[8].

ولعلنا لا نجانب الصواب إذا قلنا إن التلاؤم في القران الكريم قد تحقق حتى في المتضادات، وفي الأساليب القرآنية المنفردة التي ابتدعها البيانُ القرآنيُّ إننا وجدنا الكتاب المجيد في كثير من المواضع يجمع بين الشيء وضده في احسن صور التلاؤم، كما في سياقات الحديث عن المؤمنين والكافرين والجنة والنار وهكذا، ولذا نستطيع القول إنَّ التلاؤم يتحقق حتى بين المتغايرات ضدياً، وليس هذه الصفة الجمالية متحققة إلا في القران الكريم.

وأمَّا تشابه الأطراف: فهو أيضاً مركب إضافي مركب من " تشابه" مضافة إلى "الأطراف"، والمقصود بـ" تشابه، "من الشِّبْه والشَّبَه: المِثْل واشبه الشيء بالشيء: ماثله وفي المثل،" من يشابه أبَه فما ظلم[9]"[10]. ومعناه تماثل الأطراف.

(1) ينظر: الفوائد المشوق في علوم القران وعلم البيان, محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن القيم الجوزية ت(751هـ)/ 87.
(2) ينظر: نقد الشعر: 54، و الطراز المتضمن لإسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز, يحيى بن حمزة بن علي العلوي(ت745هـ): 80/3.
(3) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة,.: 343/2, وخزانة الأدب وغاية الأرب, تقي الدين ابو بكر بن علي بن عبد الله المعروف بـ(ابن حجة الحموي) (ت837هـ): 1/ 293.
(4) ينظر: لسان العرب: 756/1.
(5) لسان العرب: 219/5.
(6) يُنظر: الإيضاح في علوم البلاغة: 342/2، و خزانة الادب: 293/1.
(7) ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة: 342/2، و خزانة الادب: 293/1.
(8) سورة الرحمن: [6].
(9) وهو عجز بيت صدره: بابه اقتدى عدي في الكريم, ذكر في شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك, ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الحمداني المصري ت(769هـ): 50/1.
(10) لسان العرب: 503/13.

اما في الاصطلاح البلاغي فـ" تشابه الأطراف": هو أن يختم الكلام بما يناسب أوله في المعنى[1]، كقوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2]. فإنَّ اللطيف يناسب ما لا يدرك بالبصر، والخبرة تناسب من يدرك شيئا، فإنَّ من يدرك شيئا يكون خبير به"[3].

أمَّا التوفيق: فالوفاق: الموافقة، والتوافق: الاتفاق والتظاهر، وَفْقُ الشيء ما لاءمه"[4].

أما في الاصطلاح البلاغي فهو الائتلاف والتناسب والمؤاخاة ومراعاة النظير.

أما التشابه: فهو مصدر الفعل تشابه، " وتشابه الشيئان واشتبها: أشبه كُلُّ واحد منهما صاحبه"[5].

أمَّا معناه في الاصطلاح البلاغي، فالتشابه: أنْ يتساوى الطرفان المشبه والمشبه به في جهة التشبيه، فيترك التشبيه على التشبيه ليكون كُلُّ واحد من الطرفين مشبها ومشبها به تفادياً من ترجيح أحد المتساويين[6]

كقول أبي اسحاق الصابي[7]:

تَشابهَ دمعي إذْ جرى ومدامعي فمِنْ مثلِ ما في الكأس عيني تسكبُ

فو اللهِ لا ادري أ بالخمرِ أسيلتْ جفوني أمْ مِنْ عبرتي كُنتُ أشربْ

ومنهم من قال: " أن تكون الالفاظ غير متباينة بل متقاربة في الجزالة والرقة والسلاسة، وتكون المعاني مناسبة لألفاظها من غير أن يكسو اللفظ الشريف المعنى السخيفَ أو على الضد بل يصاغان معا صياغة تناسب وتلاؤم"[8]، كقول النابغة[9]:

فالرفقُ يُمْنٌ والأناةُ سعادةٌ فتأنَّ في رفقٍ تنالُ نجاحاً

واليأسُ ممَّا فات يعقبُ راحة ولرُبّ مَطْعَمَةٍ تعُودُ ذُباحاً

وبعد عرضنا لهذه المصطلحات المشابهة للتلاؤم من حيث المفهوم البلاغي العام، يتبين لنا ان التلاؤم أشمل من حيث المفهوم البلاغي والمعنى اللغوي فهو شامل لكل جوانب البلاغة في الكلام، ويمكننا أيضاً أنْ تستدل على هذا من تعريف الرماني للبلاغة إذْ عرَّفها بأنَّها: " إيصال المعنى الى القلب في أحسن صورة في اللفظ يسلك تلك الحقيقة في قلبك ويقررها فيه"[10]

فهذا الكلام يدل على ان البلاغة لا تقوم إلاّ بتلاؤم اللفظ مع المعنى حتى يكون المقال ملائما للمعنى والمقام الذي يقال فيه.

إذن يمكننا القول: إنَّ هذا الجانب الفني لا يمكن الاستغناء عنه في تأليف الكلام فلا يوصف معنى بأنَّه بليغ إلا بتلاؤمه مع اللفظ الذي جلب له.

"فاللفظ جسم روحه المعنى، وارتباطه به كارتباط الروح بالجسم يضعف بضعفه، ويقوى بقوته"[11]. واللفظ يكون قوياً اذا كان فصيحاً وفصاحة اللفظ تكون بتلاؤم حروفه، وتلاؤم الحروف يكون بتلاؤم أصواتها في المخارج والصفات وتباعد المخارج يجعل اللفظ

(1) الإيضاح الإيضاح في علوم البلاغة: 44/2, التلخيص في علوم البلاغة: 354.
(2) سورة الانعام: 103.
(3) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة , عبد المتعال الصعيدي: 584/4.
(4) لسان العرب: 10/ 382.
(5) المصدر نفسه: 503/13.
(6) ينظر: مفتاح العلوم, يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، أبو يعقوب(ت626هـ): 164، و الإيضاح الإيضاح في علوم البلاغة:242، و المطول, سعد الدين التفتازاني: 335.
(7) البيتان لأبي اسحاق الصابي اليهودي, ذُكِرا في كتاب من غاب عنه الطرب, عبد الملك بن محمد ابو منصور الثعالبي ت(429هـ): 114.
(8) حسن التوسل إلى صناعة الترسل , شهاب الدين محمود الحلبي: 212؛ نهاية الأرب في فنون الأدب, شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد النويري ت(733هـ): 107/7.
(9) ديوان النابغة الذبياني, تحقيق: كرم البستاني, دار صادر: 28.
(10) النكت في إعجاز القرآن: 75.
(11) العمدة في محاسن الشعر وآدابه, أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني ت(463هـ):124/1.

سهلا فصيحاً[1]، يقول الرمانيُّ: "والتلاؤم في التعديل من غير بعد شديد أو قرب شديد، ذلك يظهر بسهولته على اللسان، وحسنه في الأسماع وتقبله في الطباع"[2].

ونستطيع القول بعد ذلك: إن التلاؤم قديم قِدَم الكلام العربي، فالبلاغة قائمة على تلاؤم اللفظ مع المعنى، وفصاحة اللفظة قائمة على تلاؤم حروفها ولا تكون الحروف متلائمة إلا باتفاق مخارجها وصفاتها وانسجامها بنغم ينساب في أذن السامع، لسهولته ولطافته وعذوبة نطقه.

ويجب القول أيضا إنَّ للتلاؤم في القرآن الكريم شأناً آخر وشأوا بعيداً لا يدركه مستوى كلام آخر، فهو نسيج وحده، وفريد في فنه.

لقد ذكرنا في موضع سابق أن هناك مصطلحات تشابه مصطلح التلاؤم من حيث المفهوم البلاغي، الا أنها تختلف عن بعضها البعض في المعنى اللغوي(المعجمي)، وفي جزيئات من المعنى الاصطلاحي عند البلاغيين، وهذه المصطلحات هي:

- **التناسب.**
- **الائتلاف.**
- **الالتئام.**
- **مراعاة النظير وغيرها.**

ولكن واحداً من هذه المصطلحات كثر استعماله مقارنة مع اشباهه، وهو التناسب وفي مواضع أريد فيها التلاؤم، ولكن التناسب مصطلح لم يُعط له تعريف محدد في كلام الأقدمين وكتبهم، فهو مصطلح ظهر باسم علم المناسبة، وقد عبر عنه بـ(التناسب) او (الترابط)[3]. وهي كلها قريبة من بعضها، اما عن واضعه فلقد ذُكر أن ثمة إشارات قوية في تراثنا تشير إلى ان السابقين من أهل الصدر الأول من الصحابة وكبار التابعين كانوا يعرفون بأمر المناسبة، وَيعْنَون به[4]، وقد نقل البقاعي (ت885هـ) بعض الآثار الدالة على ذلك، فمنها ما روي عبد الرزاق بإسناده عن ابن مسعود (ﷺ)– أنه قال: "إذا سأل احدكم صاحبه كيف يقرأ آية كذا وكذ، فليسأله عما قبلها"[5]، ومنها ما روي عن أبي سعيد الخدري (ﷺ) أنه حدَّث أن قوماً يدخلون النار ثم يخرجون منها، فقالوا له: أو ليس الله تعالى يقول: "﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ{37}﴾ فقال لهم ابو سعيد: إقرؤوا ما فوقها:"﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُواْ بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ المائدة: 36"[6].

فهذه أدلة جاء بها البقاعي على أوليات علم المناسبة ولكن – في رأينا– إنَّ هذه الأدلة يمكن ان نأتي بها ادلة على التلاؤم لأنَّها– كما ذكرنا– مصطلحات متشابهة، أما الكلام في التناسب والترابط فلم يظهر فناً مستقلاً من حيث المفهوم والمصطلح إلا مع الإمام الجليل أبي بكر النيسابوري (ت324هـ)، فإنَّه أول من أظهر علم المناسبة إذ كان يوليه اهتماماً في درسه، وكان يقول اذا تليت عليه آية: "لِمَ جعلت هذه الآية الى جانب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة الى جانب هذه؟"، وكان يزري على علماء بغداد لعدم علمهم بتلك المعاني.[7].

وما أريد ذكره هنا موازنة بين المصطلحين ليتبين من خلالها أيهما أوفق في تأدية معنى هذا الفن الجمالي ومن خلالها يتبين سبب اختبارنا لهذا المصطلح دون غيره المصطلحات المشابهة له.

(1) ينظر: سر الفصاحة- دراسة بلاغية , د.عبد الرزاق ابو زيد زايد: 75.
(2) النكت في اعجاز القران: 96.
(3) ينظر: مصابيح الدرر في تناسب آيات القران الكريم والسور, عادل محمد ابو العلاء:17.
(4) ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور, برهان الدين البقاعي (ت885هـ): 1/154- 155.
(5) مصنف عبد الرزاق, أبو بكر عبد بن همام اليماني الضعاني: 3/364.
(6) أخرجه ابن مردوية وابن أبي حاتم فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) عند تفسير الآيتين (36)، (37) من سورة المائدة: ولكن من حديث جابر بن عبد الله.
(7) ينظر: البرهان في علوم القران , بدر الدين الزركشي (ت794هـ): 1/36.

ونبدأ بهذه الموازنة من معناهما اللغوي (المعجمي) فنتقصى معنى كل منهما ونذكر الفروق الدقيقة التي ستتضح لنا.

فالتناسب من: "تَسَبَ: النَّسب: نَسبُ القرابات، وهو واحد الأنساب والنَسَبُ: القرابة[1]" وقد يقتربُ الشيئآن المتناسبان من بعضهما فتقوى درجات الشبه، وربما تكون درجات التناسب دقيقة لا تكادُ تُلمحُ.

اما التلاؤم فقد ذكرنا معناه ابتداءً مفصلاً: وهو من لَأَمَ واللَأْم: الاتفاق والاجتماع والالتحام ويقال: لاءَمتُ الصدع والجرح إذا سددته فالتَأَم[2]. فلا حاجة لنا بإعادته هنا.

من خلال المعنى اللغوي يمكن القول: إنّ درجة التشابه في التناسب قد تضعفُ وقد تقوى بِحْسْب أوجه التشابه ونوعها، في حين أنَّ درجة التشابه بين الأشياء المتلائمة الأجزاء أقوى وأشمل، فلا يُقال إنَّ هذا القميص يلائمني إلا إذا كان حجمه يتطابق مع حجم جسدي وكذلك لونه يلائم لون بشرتي إلى درجة كاملة، والعناصر الحسية في درجة التلاؤم متحققة اكثر من التناسب الى جانب العناصر المعنوية بطبيعة الحال، فمن هذا المعيار يمكن القول إنَّ التناسب يكون بين المعاني أكثر مما يكون بين الألفاظ، ولا يصل إلى أصغر وحدة في الكلام، أما التلاؤم فيكون أشمل من التناسب، فهو يبدأ من أصغر وحدة في الكلام وهي الحروف وأصواتها في اللفظ والألفاظ مع بعضها والألفاظ مع المعنى، ويكون أيضا بين المعاني. ويمكننا القول أيضا إنَّ معنى الصلة التي يعطيها لفظ (نَسَبَ) ليس أقوى من المعنى الذي يعطيه الاتفاق والاجتماع والالتحام، فنحن نلمح من معنى لفظة التناسب مسافة بين المتناسبين، فقد يلتقيان في جانب واحد أو اثنين وقد تضعف الصلة، اما التلاؤم فنلمح فيه التناسب والانسجام التام بين المتلائمين، والتلاؤم إذا كان في الكلام صار قطعة واحدة متناسقة منسجمة الأطراف.

ويمكننا ان نجد فرقا آخر بين المصطلحين، وهو فرق مهم جداً، هو أن التناسب عندما ظهر على يد أبي بكر النيسابوري (324هـ)، قد خَصَهُ بالقرآن، فموضوع التناسب آيات القرآن وسوره، فكان يقول– كما ذكرنا–: لم جُعِلَتْ هذه الآية الى جنب هذه، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة"[3].

اما التلاؤم فقد تحقق في القرآن الكريم على اعتبار أنَّ القرآن في الطبقة العليا من حيث الإعجاز بأنواعه ولاسيما البلاغي واللغوي، فالتلاؤم مصطلح وصفي في لغة القرآن الكريم، وهذا لا يعني انه غير متوافر في كلام العرب شعراً ونثراً، إذ إن هذا المصطلح يتحقق في القول الفني أَو فن القول، ولكن لا يصل الى درجة التلاؤم القرآني المعجز ولا يشبهه باي حال.

وقد عدّه الرماني قسما من أقسام البلاغة التي قسمها إلى عشرة اقسام[4] وهنالك أمر آخر لا يفوتنا ذكره في هذا المقام، هو أنَّ مُصطلحَ ((التلاؤم)) أقدم وأعرق من مُصطلحِ ((التناسب)) فهو– كما أسلفنا – شرط أساس في الكلام إذا أردنا وصفه بالبلاغة، وقد تَنَبَّه اليه العرب في كلامهم سليقة من دون قواعد وضوابط منذ العهود الاولى ما قبل عهد التدوين الاول وذكرنا امثلة على ذلك في صفحات سابقة.

إذنْ مما تقدم كله ظهر جلياً سبب اختيارنا لهذا المصطلح دون مصطلح التناسب أو المصطلحات المشابهة الأخرى.

ثبت المصادر والمراجع

- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي (ت 1356هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط8، 1425هـ/2005م.
- الإيضاح في علوم البلاغة، محمد عبد الرحمن بن عمر، ابو المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت 739هـ)، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط3، ج3.

(1) لسان العرب: 755/1.
(2) ينظر مقاييس اللغة، ابن فارس: 226/5, ينظر: لسان العرب: 230/12.
(3) البرهان في علوم القرآن: 36/1.
(4) ينظر: النكت في اعجاز القران: 76.

- البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت 794هـ)، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، ط1، 1957م، دار احياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركائه، الاجزاء: 4.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، عبد المتعال الصعيدي (ت 1391 هـ)، مكتبة الآداب، ط، 17، 2005م، عدد الاجزاء: 4.
- البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، عبد الرحمن بن حسن بن حنبكة الميداني (ت 1425هـ)، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط: الأولى، 1416هـ/1996م.
- البيان والتبيين، عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (ت 255هـ)، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1423هـ، الاجزاء: 3.
- تاج اللغة وصحاح العربية، أبو منصور إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت 393هـ).
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد الهروي، أبو منصور (ت 370 هـ)، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م، الاجزاء: 8.
- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، أحمد إبراهيم، بن مصطفى الهاشمي (ت 1362 هـ)، تحقيق: د. يوسف القميلي، المكتبة العصرية، بيروت.
- حُسن التوسل إلى صناعة الترسل، شهاب الدين محمود الحلبي (725هـ)، تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف،ط1، مطابع وزارة الثقافة والإعلام العراقية –بغداد– دار الرشيد، 1980م.
- خزانة الأدب وغاية الأرب، ابن حجة الحموي، تقي الدين ابو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري (ت 837 هـ)، تحقيق: عصام شقيو، دار مكتبة الهلال، بيروت، ط: الأخير، 2004م، الأجزاء: 2.
- خزانة الادب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (ت 1093 هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997م، الاجزاء: 12.
- دلائل الاعجاز، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (ت 471 هـ أو 474 هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني، القاهرة، دار المدني بجدة، ط3، 1413هـ/1992م.
- ديوان أبي تمام، شرح التبريزي، تحقيق: محمد عبده عزام، ط: دار المعارف.
- ديوان البحتري، تحقيق: د. فاروق الطباع، ط: دار الارقم بن الأرقم، بيروت.
- ديوان السموأل، صنعه: أبو عبد الله نفطويه، تحقيق: الشيخ محمد آل ياسين، مطبعة المعارف، بغداد، 1955م.
- ديوان امرئ القيس، تحقيق: حنا الفاخوري، دار الجيل، بيروت، ط1، 1989م.
- سر الفصاحة، أبو محمد عبد الله بن محمد بن سعيد ابن سنان الخفاجي الحلبي (ت 466 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
- الشعر والشعراء، أبو محمد بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت 276 هـ)، دار الحديث، القاهرة، الاجزاء: 2.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (ت 232 هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، الاجزاء: 2.
- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز، يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلوي، المكتبة العصرية، بيروت، ط1، 1432هـ.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت 463 هـ)، تحقيق: محمد محي الدين بن عبد الحميد، دار الجيل، ط5، 1981م، الاجزاء: 2.

- الفوائد المشوق في علوم القرآن وعلم البيان، محمد بن ابي بكر بن أيوب بن سعدي بن قيم الجوزية (ت 751 هـ).
- قواعد الشعر، أحمد بن يحيى بن زيد سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب (ت 291 هـ)، تحقيق: رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1995م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الأفريقي (ت 711 هـ)، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، الاجزاء: 15.
- مرقاه المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، علي بن سلطان محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (ت 1014هـ)، دار الفكر العربي، لبنان، ط1، 1422هـ/2002م.
- مسائل حرب، أبو محمد حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني (ت 280 هـ)، إعداد: فايز بن أحمد بن حامد بن حابس، جامعة أم القرى، 1422هـ، عدد الأجزاء: 3.
- مصابيح الدرر في تناسب آيات القرآن والسور، عادل بن محمد أبو العلاء، الجامعة الاسلامية، المدينة المنورة، ط: 1425.
- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت 885هـ)، مكتبة المعارف، الرياض، ط1، 1987م، الاجزاء: 3.
- المصنف، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت 211 هـ)، تحقيق: حبيب عبد الرحمن الاعظمي، المكتب الاسلامي، بيروت، ط2، 1403هـ/الاجزاء: 11.
- مفاتيح العلوم، محمد بن أحمد بن يوسف ابو عبد الله، الكاتب البلخي الخوارزمي (ت 387 هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب العربي، ط2.
- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي الخوارزمي الحنفي أبو يعقوب (ت 626 هـ)، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط2، 1987م.
- مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكريا المغزويني الرازي، ابو الحسين (ت 395 هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، 1979م، الاجزاء: 6.
- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، أبو عبيد الله بن محمد بن عمران بن موسى المرزباني (ت 384 هـ)، دون دار طباعة، (د.ط).
- نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التميمي البكري، شهاب الديت النويري (ت 733 هـ)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط1، 1423هـ، الاجزاء: 33.